لسان الدين الخطيب ومآثره الأدبية

طالب الدكتوراه حامد جواد كاظم
قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران
hamid.j@uokerbala.edu.iq
الدكتور تورج زيني وند (الكاتب المسؤول)
أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران
T-zinivand56@yahoo.com
الدكتور يحيى معروف
أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران
y. marof@yahoo.com
الدكتور محمد نبي احمدي
أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران

Lisan al-Din al-Khatib and his literary exploits

Hamid Jawad Kazem
Phd student , Department of Arabic Language and Literature , Razi University , Kermanshah , Iran
Dr. Torg Zainivand (Responsible author)
Professor , Department of Arabic Language and Literature , Razi University , Kermanshah , Iran
Dr. Yahya Maarouf
Professor , Department of Arabic Language and Literature , Razi University , Kermanshah , Iran
Dr. Muhammad Nabi Ahmadi
Associate Professor , Department of Arabic Language and Literature , Razi University , Kermanshah , Iran

الملخص:-

تناول هذا البحث حياة وأدب الاديب لسان الدين الخطيب ومآثره العلمية،من البواعث التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع رغبتي في التعرف على هذا المؤرخ والعالم الذي ترك كمّاً هائلاً من الكتب، لنتعرف من خلالها على أحوال تلك العصور الماضية. كذلك محاولة إعطاء صورة متكاملة عن حياته، ومعرفة أسباب نكبته المؤسفة.

أما عن منهجي في هذه الدراسة، فهو المنهج التاريخي السردي التحليلي، الذي يعتمد على جمع المعلومات وتحليلها للوصول إلى النتائج الصحيحة

الكلمات المفتاحية: الاندلس، لسان الدين الخطيب، التاريخ، الجغرافية، الشعر، النثر.

Abstract:-

This research dealt with the life and literature of the writer Lisan al-Din al-Khatib and his scientific exploits. One of the motives that prompted me to choose this topic was my desire to get to know this historian and scholar who left a huge number of books, through which we might learn about the conditions of those past eras. It is also an attempt to give a comprehensive picture of his life, and to know the reasons for his unfortunate calamity. As for my methodology in this study, it is the historical, narrative, and analytical method, which relies on collecting and analyzing information to reach the correct results.

Key words: Andalusia , Lisan al-Din al-Khatib, history, geography, poetry, prose.

المقدمة:

إن لسان الدين بن الخطيب من الشخصيات المشهورة التي كان لها دوراً بارزاً في التاريخ الإسلامي في الأندلس. فما من شك أن ابن الخطيب كان - فضلاً عن دوره البارز في صناعة التاريخ والسياسة لمملكة غرناطة وفاس - موسوعياً في فكره وثقافته وتحصيله، بالمقدار الذي جعله يتبوأ الصدارة في تاريخ العرب بالأندلس. ومما لا ريب فيه أنه -على الرغم من الأعباء الرسمية والسياسية التي تولاها في مملكة غرناطة - قد ترك تراثاً فكرياً ضخم اً في متعدد المعارف والعلوم وهذا ما جعله أن يكون (موضوعاً) لكثير من الدراسات الأكاديمية الجامعية والأبحاث العلمية لكثير من الباحثين. ومن هذا المنطلق تَكْمُن أهمية الموضوع، فهذه الشخصية بحاجة إلى إبرازها والتعريف بأهم الأعمال الأدبية والعلمية التي صدرت عن هذه العقلية، سواء أكانت أعمال سياسية أم أدبية أم علمية.

إسمه ولقبه:

لسان الدين محمد بن عبدالله بن سعيد بن عبدالله بن سعيد بن علي بن احمد السلماني الغرناطي" (موسوعة شعراء الأندلس، محمد موسى الوحش، دائرة المكتبة الوطنية،،٢٠٠٧ مطبعة دار دجلة، الأردن: ٢٥٢) وكان لسان الدين يكنى "أبو عبدالله وينسب إلى سلمان وسلمان حي من مراد من عرب اليمن القحطانيين، هاجروا إلى الاندلس وسكنوا قرطبة وانتقلوا إلى طليطلة وبعدها إلى مدينة غرناطة، لقب بعدة القاب منها: لسان الدين، وهو من الألقاب المشرقية التي كانت شائعة في عصره وخاصة (في الأدب االندلسي، د. محمد رضوان الراية، مطبعة دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دمشق، سوريا،:٢٠٠٠.) في مصر. ولقب بالخطيب نسبة إلى اسرته التي عرفت باسم آل خطيب لكون جده سعيد كان خطيباً في مدينة لوشه". وايضاً كان يلقب بـ"ذي الو ازرتين، ألنه جمع ين الوزارة والكتابة" (مجلة جامعة تكريت للعلوم، مجلد،٢٠ العدد /١كانون الثاني،٢٠١٢/ أ.م.د. ساجد مخلف حسن.) وكان لبيته لقب كذلك "كان يعرف بيته بـ"بيت الوزير" ألنه (دفاتر اندلسية في الشعر والنثر والحضارة واالعالم، أ.د. يوسف عبد، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان،:٢٠٠٦.:٥٨٨) كان بيت علم وشرف وسيادة ونفوذ".

ولادته ونشأته:

ولد لسان الدين الخطيب في القرن الرابع عشر، "ولد في لوشه احدى المدن التابعة لغرناطة سنة(٧١٣هـ/١٣١٣م) انتقل إلى غرناطة، وكان ابوه كاتباً في الديوان السلطاني فنشأ في رعاية والده وتلقى علومة على عدد من شيوخ العصر واكابر العلماء" (في الأدب االندلسي: ٣٦٧) درس على يد عدد من الشيوخ في عصره " منهم القاضي أبو بكر بن شيرين، الذي رثاه والده" (الإحاطة في اخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، ج،٢ دار المعارف، مصر، القاهرة: ١٧٦) وأيضا الرئيس أبو الحسن علي بن الجياب والأستاذ أبو العواد والشيخ القاضي الفقيه أبو محمد عبدالحق بن سعيد والفقيه الفضل يونس بن عطية واألستاذ في فن اللغة العربية أبو علي عمر بن عثمان" (ينظر: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، الشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني، ج،٥ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان:.٥٤١).

نبغ لسان الدين في القرن الثامن الهجري وكان اعجوبة عصره في الجمع بين السياسة واالدب، والشعر والنثر، يوصف بأنه ابرع كاتب اخرجته االندلس في عصورها األلخيرة لم تقف كتابته على الرسائل بل كتب في التاريخ والطب والموسيقى، برع في الكتابة (في الأدب االندلسي، الفصل الثالث، النثر الفني في الأندلس:٢٢٤-٣٦٧) بفن السجع ولم يلتزمه دائما وكان له مقامات في الرحالت ووصف البلدان شغل منصب كاتب ثم رئيس كتاب" (مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، أ.د. احمد مختار العبادي، كلية آآلداب، جامعة الإسكندرية:٥) وهو "وزير ملوك بن أألحمر في غرناطة، شخصية من أصحاب الثقافة الموسوعة". استوزره سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل ٧٣٣هـ ثم ابنه الغني باهلل من بعده، شعر بسعي الحاسدين الوشاية به فكتب إلى السلطان عبدالعزيز المريني برغبته في الرحلة اليه. ترك االندلس خلسة إلى جبل طارق ثم سبتة في تلمسان سنة ٧٣٣ هـ فبالغ السلطان عبدالعزيز في اكرامه. وبعد تولي السلطان المستنصر المغرب بمساعدة الغني بالله اشترط عليه تسليمه ابن الخطيب فقبض عليه فارسل الغني ابن زمرك إلى فاس وعقدوا مجلس شورى اتهم بالزندقة وسلوك مذهب الفلاسفة افتى بعض الفقهاء بقتله فأعيد إلى السجن، فدس له رئيس مجلس الشورى اسمه سلمان بن داؤد بعض الأوغاد فدخلوا عليه السجن ليلاً وخنقوه ودفن في مقبرة باب المحروق بـ"فاس"("ينظر: موسوعة شعراء االندلس، محمد موسى الوحش، دائرة المكتبة الوطنية، دار دجلة، االردن،:٢٠٠٧.) وقيل انه وضعت

عليه الأخشاب واضرم فيه النار فاحترق شعره واسودت بشرته واعيد إلى حفرته في أوائل سنة (٧٧٦ هـ/١٣٧٤م) (مجلة جامعة تكريت للعلوم.)

ثقافته:

برع لسان الدين في الشعر والنثر وكثرة التأليف وغزارة الإنتاج في الشعر سيطر عليه في جانبين: الوجدانيات الخاصة به من شعر ذاتي، كالتأمل والغزل ووصف الطبيعة الأندلسية، والتعبير بالشعر عن جوانب الحياة وما يخص نفسه واسرته وحياته الخاصة. والجانب الآخر: استخدم الشعر وسيلة لالتصال بالعالم الخارجي وخصوصاً شعر المديح الذي كان يقدمه إلى البالط في المناسبات واالعياد واالحتفاالت... والشعر الذي يصور االحداث العامة والسياسية.(ينظر: في الأدب الأندلسي:٣٦٩).اتسم شعره بالبديهة والإرتجال وكان صورة عصرية حية. وكان لسان الدين شاعر طويل النفس وفي شعره لمحات دالة على ثقافته الواسعة ومخزونه الغزير، والتمكن اللغوي، وتراص البناء الشعري، وسيطرة الفكر على حساب العاطفة، ويستخدم أسلوب التصور والتخيل، وفي القصيدة طاقة غنائية".(ينظر: في الأدب الأندلسي: ٣٧٠)

أما في الكتابة "كان أسلوبه موجه إلى الصناعة اللفظية إذ كان يعنى باللفظ ويقصد إلى التنميق وتعمد السجع، ويطيل في ذلك إطالة تدعو إلى الملل، والتكلف والميل إلى الإطناب، فكثير ما كانت معانيه قليلة والفاظه وجمله كثيرة، فكانت الإجادة عنده في الإحاطة والإطناب وكانت له منزلة عظيمة ترجع إلى كثرة مؤلفاته" (دفاتر اندلسية: ٥٥٩)

فكان له رسائل سياسية واخوانية وسلطانية تدل على اطالعه الواسع وفكره الخصيب (المفصل في تاريخ االدب العربي، تأليف: احمد ضيف واحمد امين واحمد الإسكندري وعلي الجارم وعبدالعزيز البشري، المطبعة االنموذجية، دار احياء العلوم، بيروت، لبنان، ج:١:١٣١) وله مكانة علمية كبيرة أشادت به المصادر التاريخية والعلماء الذين ترجموا له قال عنه ابن خلدون: (شاعر الأندلس والمغرب وانه كان في اللسان ملكه لا تدرك) فقال عنه أبو العباس التنبكي: الإمام الأوحد الفذ صاحب الفنون المنوعة والتأليف العجيبة) أشاد بعلمه ابن الأحمر (شاعر الدنيا وعلم المفرد والثنيا) وقال فيه ابن القاضي الأديب البارع، الكاتب، ذو التصانيف المنسقة وقال عنه فروخ: كان لسان الدين بن الخطيب بارعاً في

الفلسفة والسياسة والطب، اما في التاريخ فكان مؤلف عصره بلا منازع، وهو اديب ناشر، مترسل، وشاعر مقتدر.(مجلة جامعة تكريت للعلوم)

مؤلفاته:

بلغت مؤلفاته بحدود الستين مؤلفاً، وقد ذكرت المصادر هذه المؤلفات ومنها:

١) اعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام وما يجيز ذلك من شجون الكلام.

وهو ثلاث اقسام:

- تاريخ المشرق
- تاريخ اسبانيا
- تاريخ المغرب

٢) اللمحة البدرية في الدولة النصرية.

٣) الإحاطة في اخبار غرناطة، ذكر سبب تأليفه (الفتنة بسب حبي فديته غرناطة)

٤) الكتيبة الكافة فيمن لقيته بالأدلس من شعراء المئة الثامنة.

٥) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب. فيه طائفة من الرسائل السلطانية والسياسية.

٦) كناسة الدكان بعد انتقال السكان.

٧) روضة التعريف بالحب الشريف (مجلة جامعة تكريت للعلوم.)

أما مؤلفاته في الطب فهي:

١. عمل في طب لمن حب: تناول فيه مختلف الأمراض وأسبابه واعراض وعالج كل مرض.

٢. ارجوزة في الطب.

٣. خير في الأغذية.

٤. الوصول لحفظ الصحة من الفضول.

٥. كتاب في عالج السموم والأرجوزة المعلومة (مجلة جامعة تكريت للعلوم).

النثر في العصر الأندلسيّ:

يعدّ النثر واحداً من أشكال الكتابة المعتمدة عند العرب منذ القدم، ويرجح العلماء أنه سابق على نظم الشعر، ذلك أن العرب كانت تستخدم الجملة العربية الفصيحة في حياتهم للتعبير عن حاجاتهم وفي خطاباتهم أيا كان شكلها، إضافة إلى أن نظم الشعر كان يحتاج إلى متخصصين فليس العرب جميعهم شعراء، بينما يستطيع جميعهم التعبير بعبارات وكلمات نثرية في ميادين الحياة المختلفة، ومرت الفنون النثرية بتطورات كبيرة نتيجة للاختلاف في العصور، ولاطلاع العرب على غيرهم من الأمم من أساليب فنية متعددة ناسبت الحياة المعاصرة لهم، وتعدد الكتّاب على أثر ذلك، وهذا ما سنلقي الضوء عليه في العصر الأندلسي.(زهراء عطابي كوزاني (١٥-١١-٢٠١٠)، "النثر العربي وأعلامه"، ديوان العرب، اطّلع عليه بتاريخ ١-٢-٢٠٢٢.)

الفنون النثرية في العصر الأندلسي وأساليبها:

تعددت الفنون النثرية في العصر الأندلسي، وتطورت وقد جاءت على أنواع عديدة مثلت مراحل تطور هذه الأساليب، أولها طريقة الكتاب الأوائل الذين ظهروا في صدر الإسلام، وثانيها طريقة عبد الحميد وابن المقفع، والجاحظ وسهل بن هارون، وثالثها طريقة بديع الزمان الهمذاني وشمكير وغيرهم.(محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، صفحة ٢١٩.).

الخطابة:

تعددت الفنون النثرية في العصر الأندلسي، فتناول الكتّاب مختلف الفنون التي كانت واردة في المشرق من خطب، ورسائل، ومناظرات، ومقامات، وزادوا عليها ما احتاجوا إليه في حياتهم اليومية، وتميزوا بقدرتهم على الجمع بين الشعر والنثر في كتاباتهم. (هناء دوديري (١١-٢-٢٠١٣)، "الأدب في العصر الأندلسي"، المعرفة، اطّلع عليه بتاريخ ١-٢-٢٠٢٢٩).

وقد بدأت الكتابة في الأندلس بالقليل من الشخصيات المشرقية الأصل التي دخلت واستقرت في الأندلس، وكانت أول الفنون النثرية التي دخلت ولا سيما بعد الفتح،

ولحاجتهم لاستثارة النفوس وإذكاء روح الجهاد، وتطور فن الخطابة نظراً لاختلاف الحياة، فظهرت الخطب المنمقة والمشتملة على أساليب بلاغية وفنية مثل التورية. (هناء دوديري (١١-٢-٢٠١٣)، "الأدب في العصر الأندلسي"، المعرفة، اطّلع عليه بتاريخ ١-٢-٢٠٢٢٩)

الرسائل:

ظهر فن الرسائل، وكانت محددة في الأغراض، ولم يكن فيها التوشيح والسجع، وبعد أن استقرت أحوال الدولة الإدارية والسياسية أوجب ذلك ظهور العديد من الكتّاب الذين يكلّفون بمهام الكتابة، وكان عليهم التحلّي بالكثير من المعرفة، والثقافة، والمعلومات العامة والخاصة، لأن رتبة الكاتب كانت رتبة عالية بين الناس. (محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي،:٢١٥.)

وقد كانت الرسائل في هذه الفترة قصيرة أقرب ما تكون للتوقيعات المتسمة بالإيجاز والقصد في التعبير، وإثراء المعنى.إلى أن ظهرت الرسائل الديوانية والإخوانية، والأدبية والنبوية وغيرها. (محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي،:٢١٥.)

المقامة:

ظهرت المقامة في الأندلس أثناء الحركة الحياتية، والثقافية المتبادلة في الشرق والغرب على يد بديع الزمان الهمذاني، وهي أقرب إلى الحكاية أو القصة المسجوعة المبنية على الخيال لإضفاء معلومات معينة للقارئ.

أدب الرحلة:

نشط أدب الرحلة بشكل كبير في العصر الأندلسي، وهو الفن القائم على تسجيل مجريات الأحداث، ووقائع الرحلات، وتميزت بروح المغامرة، وبعد المسافات المقطوعة.

المناظرة:

المناظرة هي فن يهدف الكاتب فيه إلى إظهار مقدرته البيانية وبراعته الأسلوبية، وهي نوعان: خيالية، وغير خيالية، ومن أشهر المناظرات الخيالية مناظرة السيف والقلم لابن برد الأصغر، ومن المناظرات غير الخيالية ما تجري فيه المناظرة بين مدن الأندلس ومدن المغرب كمفاخرات مالقة وسلا للسان الدين بن الخطيب.(هناء دوديري (١١-٢-٢٠١٣)، "الأدب في العصر الأندلسي"، المعرفة، اطّلع عليه بتاريخ ١-٢-٢٠٢٢٩)

الأساليب الفنية لفنون النثر الأندلسي:

تطورت الأساليب الفنية في العصر الأندلسي بناء على تطور العصر ودخول الأغراض المختلفة، فبدأت الفنون بسيطة خالية من التعقيد والتوشيح والزخارف اللفظية والسجع، ثم تطورت لتدخل في أساليب البلاغة والمجازات اللفظية والخيال الإبداعي، وحس الفكاهة والسخرية، وتضيف الاستعارات، والتعبير المجازي، والمزج بين الحقيقة والخيال، وإدخال فن العجائبية ولاسيما في فن المقامات، والرحلات التي وصفت الوقائع بصورة نادرة وغريبة وبعيدة عن الواقع، وتسليط الضوء على الصورة الأدبية، والاستلهام من التراث والفكر الأدبي والديني.(دينا ملكاوي (١٦-٥-٢٠١٨)، "النثر الفني في الأندلس طفرة في مسار الأدب العربي"، عمون، اطّلع عليه بتاريخ ١-٢-٢٠٢٢.)

كُتاب النثر الأندلسي:

برز في العصر الأندلسي من كتاب النثر كل من ابن برد الأكبر، وعبد الملك بن إدريس الجزيري، وابن دراج القسطلي، وابن شهد، وابنا حزم، وابن حيان، وابن زيدون. وخالد بن يزيد، فمن كتّاب الخطابة القاضي عياض، وعن كتاب الرسائل فقد ظهر ابن برد الأكبر وابن برد الأصغر، وأبو محمد بن عبد البر، وأبو المطرّف بن المثنى، ومحمد بن أيمن، وابن عياش الذي ظهر في عصر الموحدين، والقرطبي الذي جاء في عصر الطوائف، ونبغ لسان الدين بن الخطيب في القرن الثامن الهجري. وظهر ابن فضلان، وابن جبير، وابن بطوطة، في فن الرحلات،(محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي: ٢٢١.)وغيرهم، وعن كتّاب المقامة اشتهر بديع الزمان الهمذاني، وابن الشهيد، والقرطبي، والهمذاني والحريري...

نبوغه في النثر:

يعَدّ ابن الخطيب، أيضاً من أبرز كتاب عصره وشعرائه، بل كُتّاب الأندلس وشعرائها، فقد وصل في النظم والنثر مرتبة التفوق التي لم يصل إليها إلا القليل، وما يميز شعره ونثره هو وفرة التنوع والتنقل في الموضوعات والمعاني، ومرجع ذلك إلى تنوع حياته المليئة بمختلف الأحداث والمحن.

فقد كان ابن الخطيب يميل في كتاباته إلى التنميق وإيثار السجع، (شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، بيروت، مكتبة الأندلس، ط٢، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م)،:٢٥١٩)

ويثقل أسلوبه كثرة الصور والإستعارات، وكان يعمد إلى البديع والمحسنات، ليتخذها حلية يجمل بها ألفاظه، ويرصع عباراته، وكان يغلب عليها الإطالة والإطناب، وهذا هو الغالب في رسائله، بل كان هذا أسلوبه الإنشائي في ترجماته وكتبه.(أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، بيروت، دار العلم للملايين ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠م،:.٣٠٨)

قال عنه ابن خلدون:

وبرز في الطب وانتحل الأدب، وأ خذ عن أشياخه، وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره، مع انتقاء الجيد منه، و بلغ في الشعر والترسل حيث لا يجاري فيهما، وملأ الدولة بمدائحه، وانتشرت في الآفاق قدماه.....(ابن خلدون، كتاب العبر، ج٧:٣٣٢)

ومن أبرز سمات رسائله أنه مطيل يميل إلى الإسهاب والإكثار، قال عنه بعض علماء المشرق: هو خليق بالتعظيم، جدير بالتكريم والتمجيد، فهو شاعر مُفْلِق، وخطيب مصقع، وكاتب مترسل بليغ (المقري، نفح الطيب، ج٦: ٢٦٩.)

ومن أمثلة رسائله رسالة عن سلطانه ابن الأحمر إلى المستنصر باالله أمير الموحدين، وهي طويلة، ويبدأها بوصف الأميران والدعاء لهما فيملأ نحو ثلاث صفحات كبيرة في مثل قوله:... فامتزجنا بعلائها المنيف، وولائها الشريف، كما امتزج الماء والسلاف، وثناؤنا على مجدها الكريم، وفضلها العميم، كما تأرجت الرياض الأفواف، لما زارها الغمام الوكاف.... ٠(أبو العباس أحمد القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي الطويل، (بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٨م، ج٦: ٥٣٦ .)

ومما تقدم، فهو يذكر العهود بين البلدين، ويصف ويثني على المغرب.

ثم يصف كتاب الأمير فيطيل ويتفنن في نحو ثلاث صفحات كقوله:

والله من قلم دبج تلك الحلل، ونقع بمجاج الدواة المستمدة من عين الحياة الغلل، فلقد تخارق في الجود، مقتدياً بالخلافة التي خلّد فخرها في الجود، فجاد بسر البيان ولبابه....(المصدر السابق:٥٥٠) والرسالة على هذا النحو، فهو مع إطالته في الوصف لا يطيل العبارات وإنشائه مستساغ حسن الإيقاع.

فقد برع ابن الخطيب في لغته التي صاغ بها نثره، وأدهش بأسلوبه أهل عصره، فقال عنه ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ١٤٠٦/م):

صدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة.(ابن خلدون، العبر، ج٧: ٣٣٢)

وبلغ من أثر ابن الخطيب، في عصره وما تلاه من عصور، أن اتخذ الكُتاب في المغرب نثره نهجاً يقتفونه، ويدرسونه، وكان لكتاب (ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب) أبعد الآ ثار من كُتب من جاء بعده، فكانوا يعودون إليه، وينهلون منه، واتخذوه قدوة وإماماً يقلدونه في كتاباتهم.(المقرى، نفح الطيب، ج ٦: ١٦٤)

أما ابن الأحمر (ت ٨١٠هـ١٤٠٧/م) فقد قال عنه:

شاعر الدنيا وعالم المفرد والثنا، وكاتب الأرض إلى يوم العرض (.ابن الأحمر، نثر الجمان:٢٤٣)

ووصف اَلمقْرِي (ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١م) نثره قائلاً:

أما نثره فهو البحر الزّخار، بل الدر الذي به الافتخار .(المصدر السابق:١٦٤)

وما جعل لسان الدين أن يصل إلى هذا المستوى في كتابة رسائله، عدة روافد ثقافية، ساهمت في إثراء لغته بشواهد نصية دعمت أفكاره، ونقصد بهذه الروافد الفنون والعلوم، التي برع فيها، فكما نعلم أن لسان الدين درس منذ صغره الثقافة الإسلامية، من حفظ القرآن الكريم وفقه وأصول الدين و علم الحديث ومصطلحاته، وعلم التفسير وعلم القراءات، وغير ذلك من العلوم الإسلامية التي بدورها صقلت عقله وذهنه، وبالتالي انعكست على فنون نثره، كذلك اهتمامه باللغة العربية ودراستها على أيدي علماء وأدباء معروفين في غرناطة، أيضاً منصبه الذي وصل إليه، واتصاله بالبلدان المجاورة، ومعايشة الأحداث عن قرب. (أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، (القاهرة، مطبعة الاعتماد، ط٢ ١٣٥٦، هـ / ١٩٣٨م):٢١٩-٢٢٠)

كما تميز بثقافة علمية متنوعة كمعرفته الدقيقة بعلم الطب، والجغرافيا، هذه الثقافات المتنوعة، ظهر أثرها على كثير من أدبه النثري، الذي اشتمل على الرسائل الديوانية

والإخوانية، والمزاوجة، وفن التراجم والنقد، وفن المقامات والرحلة، كل هذه الروافد جعلته إمام النظم والنثر في ذلك العصر. أما الشعر فقد برع ابن الخطيب في نظمه، كما أبدع في نثره، وكان شعره في بداية حياته، تبدو عليه آثار التكلف والعسر، ومضى في تجربته الشعرية، حتى روض نفسه على صناعة الشعر، واطاعته القوافي، وبعد طول المحاولة استطاع أن يكون في عصره شاعر الأندلس والمغرب. (عبدة عبدالعزيز قلقيلة، خط سير الأدب العربي، (القاهرة، دار الفكر العربي /١٤١١ هـ ١٩٩٠م):.٤٦٦)

وكانت مملكة غرناطة، هي المنبع الذي يستمد منه ابن الخطيب، زاده وإلهامه في كل قصيدة ينشدها، وكان يرتقي بشعره ويسمو إلى آفاق بعيدة، ولم يكن ا بن الخطيب في شعره سيا سياً، كما لم يكن فيه مؤرخاً، بل كان فيما يقدمه رؤى شاعر ترصد الأحداث عن قرب. إن لا بن الخطيب الكثير من القصائد ينافس بها من سبقه من الشعراء ومن عاصرهم، من حيث أغراضه وموضوعاته، ومستواه الفني، وكان شعره يتحول في بعض الأحيان إلى وثيقة تعكس أوضاع العصر السياسية والاجتماعية والأخلاقية.

وهذا يدل على مقدرته الفائقة في تطويع الأدب للسياسة والسياسة للأدب. (عبدالعزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، (بيروت، دار النهضة العربية (د. ت): ٤٩٩)

وكان شعره يشمل المديح، والغزل، والزهد، والتصوف، والمدائح النبوية، ويستعرض في سائر قصائده براعة في ابتكار المعاني واختيار الألفاظ.(المقدسي، تطور الأساليب النثرية: ٣٠٨)

وكانت له أبيات متفرقة أحياناً، و قصائداً مطولة أحياناً أخرى، وكانت أغلب قصائده تفيض بعناصر المأساة، والسبب في ذلك ما كانت تمر به الأندلس من أهوال الممالك المسيحية التي تهدد بسقوطها، وما حل به هو أيضاً من ظلم وغدر فقد كان شعره يمثل عصره، وما اشتمل عليه من انتصارات وإخفاقات.

وقد كان ابن الخطيب معجباً بشعره أشد الإعجاب، يصل أحياناً إلى حد الغرور، ويظهر اعتزازه بنفسه في بعض قصائده،(الفحام، مجلة الثقافة: ٧)

كقوله:

دُونكمَا مِنْ بَحرِ فكِري جَواهرا ثُقلدَ فِي نَحرِ وتُنظم في عَقدِ
رِكضُت بِها خيلُ البدِيهةُ جَاهداً وأُسمِعتُ آذان المّعَاني عَلىَ بُعدِّ

(المقري، نفح الطيب، ج٦:٤)

وكانت له الكثير من القصائد من أروع ما عرف في ميدان الشعر الأندلسي، فقد برع في المدائح النبوية: حيث قال:

بِنُورِكَ نُورَ االله قَد أَشرقَ الهدىَ فَأقمَارهُ وَضّاحةٌ ونجومُه
وَلِي يا رسُولَ االله فيكَ ورَاثةٌ وَمَجدُكَ لا ينْسَى الذِمَام كَرِيمةٌ

وكذلك قوله:

دَعاكَ بِأقصَى المّغرِبين غَريبُ وَأنتَ عَلىَ بُعدِ المّزارِ قَرِيبُ

(المقري، نفح الطيب:٣٦١)

كما برع في المدائح السلطانية، وترك منها طائفة كبيرة من أبدع ما أنشد، كقصيدته في مدح السلطان الغني باالله إثر عودته من المنفى إلى غرناطة ومطلعها:

الّحَقَ يعلوُ وَالأباطِيلُ تَسفلُ واللّه عَنْ أحكامِه لا يسئلُ

ويقال إن السلطان أمر بكتابة هذ ه القصيدة على قصور ه بالحمراء، لشدة إعجابه بها، وأنها إلى الآن لم تزل مكتوبة على تلك القصور. (عبدالجواد رمضان، بين لسان الدين وابن خلدون، مجلة الأزهر، مج: ١٢،(القاهرة، مطبعة الأزهر، ١٣٦٠هـ / ١٩٤٠م)، ج١: ٢٩٠).

كما كانت له العديد من القصائد - التي يصعُب حصرها - قالها في الملوك والسلاطين، كذلك قصائد الرثاء، كرثاء لزوجته ورثاءه لنفسه.

وقد جمع ابن الخطيب قصائده في ديوان شِعْرٍ سماه الصيبُ (السحاب الماطر) والجِهام (السحاب الذي لا مطر له) وَالمَاضِي (النافذ) و الكُهام (الكليل البطئ) (قد حققه محمد الشريف قاهر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر، سنة (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م).، وهو ديوان كبير يقع في سفرين (جزءين)، كما أورد لنا ابن الخطيب الكثير من قصائده في مختلف مؤلفاته، السابقة الذكر، ومن ن تاجه الشعري، أنه جمع تراجم شعراء عصره في مجموعة من المؤلفات مثل:

كتابه الشهير (الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة)، وهو عبارة عن مجلد واحد ترجم فيه ابن الخطيب لمائة شاعر وثلاثة، الذين لقيهم لسان الدين خلال حياته.

وقد ألف ابن الخطيب هذا الكتاب سنة (٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، أي بعد تركه الوزارة والإقامة في المغرب، بعد أن ا نزاح عنه عبء الرئاسة وتبعاتها، يقول في مقدمة الكتاب:.... فجمعت في هذا الكتاب جملة وافرة، وكتيبة ظافرة، ممن لقيناه في بلدنا الذي طوينا جديد العمر في ظله، وطاردنا قنائص الآمال في حرمه وحله، ما بين من تلقينا إفادته، أو أكرمنا وفادته، وبين من علمنا ه وخرجناه،.... والمقصود إنما هو إلمام بتعريف، و جلب أدب ظريف، وخبر طريف، وسميت هذا الوضع بالكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة .(ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة:١٧).

لقد عمد ابن الخطيب إلى الإطراف، والتعريف بمعاصريه من الشعراء والأدباء الأندلسيين، دون غيرهم، فقد كان الغرض من تأليفه، أن يقدم هذا الكتاب هدية للمشارقة، عند قيامه برحلة إلى الحج، غير أن هذه الرحلة لم يكتب له القيام بها، ،(وإن كان جالب هذا الكتاب إلى البلاد المشرقية أعز االله أهلها، وأمن حزنها، وسهلها، جالب نغبة (أي جرعة الماء) إلى غرير ... (ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة:١٧)

وقد قسم ابن الخطيب كتابه هذا إلى أربع طبقات وقد اختار تقسيماً منهجياً مهنياً، جعله على النحو الآتي:

١- طبقة الخطباء الفصحاء والصوفية العلماء.

٢- طبقة المقرئين والمدرسين.

٣- طبقة القضاة.

٤- طبقة من خدم أبواب الأمراء من الكتاب والشعراء.

وهكذا قسم كتابه، مقدماً لكل طبقة بحكم نقدي عام، ويلاحظ في بعض ترجمته لبعض الشخصيات، تبدل وتحول في تقدير ابن الخطيب لبعض الرجال الذين كان لهم شأن في حياتهم السياسية ورفعتهم ثم انقلبوا إلى أعداء كائدين،(المصدر السابق:٣٠٥.) أدوا

بولي نعمتهم إلى التهلكة، وسعوا في حتفه وكان ما كتبه عنهم قبل وصولهم إليه هو كل ما استطاع فعله تجاههم.

فحين يتكلم عن أعدائه ينال منهم بشدة و يقبحهم، ويعمد إلى السُخرية منهم، وعلى سبيل المثال، سخريته من القاضي النباهي - الذي اتهم ابن الخطيب بالزندقة وسعى في قتله - ووصف بالجعسوس. (المصدر السابق:١٤٦.) (أي الذميم).

وهذا الكتاب (قام بتحقيق هذا الكتاب إحسان عباس،(بيروت، دار الثقافة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)) ذاقيمة تاريخيةٍ وأدبية؛ لأنه استطاع أن يعطي صورة واضحة المعالم عن الشعر الأندلسي في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، فقد قدم نصوصاً تمثل فن أولئك الشعراء، فهو يفيد المؤرخ،والأديب، والناقد. وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية بالمكتبة الكتانية بالرباط تحمل رقم (٢٢٩١)

ونسختان بالخزانة العامة بالرباط تحملان رقم (٥٦٩/١٣٢) (هذه الأرقام بناءً على ما جاء بهـ إحسان عباس في مقدمة كتاب الكيتة الكاملة: ٢٢).

كذلك من أشهر مؤلفاته في الشعر كتاب (السحر والشعر) (قام بتحقيق هذا الكتاب محمد مفتاح الصغير، الدار البيضاء ١٤١٠هـ١٩٨٩/م) وهو ليس من تأليفه، ولكنه من إعداده وتصنيفه، وهو عبارة عن مختارات شعرية، قام بجمعها لبعض شعراء المشارقة وشعراء المغرب والأندلس. وقد جمع هذا الكتاب وأعده في فترة إ قامته بمهجره (سلا) (ابن الخطيب، نفاضة الجراب:١٨٩.)، والسبب وراء ظهور هذا الكتاب، هو أن ولده عبدالله قد كبُر وبلغ مبلغ الشباب، فأهداه هذا الكتاب قصد تأديبه وتهذيبه، وتزويده بما اختار له من الأشعار والمقاطع والأبيات من مختلف شعراء المشرق، والمغرب، والأندلس ليستزيد منه علماً وثقافة.(الشكعة، المغرب والأندلس:.٣٣٦).

كذلك من كتبه لتراجم الشعراء، كتاب (التاج المُحلى في مساجلة القدح المُعلى) و(عائد الصلة)، وهو مفقود، و(الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة). يمكن القول، أن ابن الخطيب بمؤلفاته هذه استطاع أن يرسم صورة كاملة عن الأدب الأندلسي، في المائة الثامنة من الهجرة / الرابع عشر الميلادي.

عنايته بالطّب والتأليف فيه:

وكما ا هـتم ابن الخطيب بالتاريخ والجغرافيا، والشعر والأدب، اهـتم أيضاً بالطب وأولاه عناية فائقة وألف فيهـ العديد من الرسائل.

وقد أخبر ابن الخطيب في ترجمته لنفسه في الإحاطة، أنه أخذ الطب عن شيخه الإمام (أبي زكريا بن هـذَيل) وأنه لا زمه إلى آخر حياته، وقد قال عنه ابن الخطيب:

إنـه كـان آخـر حملـة الفنـون العقليـة بالأنـدلس، وقـد تـوفى ابـن هــذيل سـنة (٧٥٣هـ/١٣٥٢م) وتولى ابن الخطيب د فنه، فقد كان يجله ويحبه كثيراً، ولم يذكر ابن الخطيب شيخاً آخر من شيوخه في الطب غير ابن هـذَيل.(المْقري، نفح الطيب،ج٣: ٤٨٧)

لم يتفـرغ ابـن الخطيـب لممارسـة الطـب تفرغـاً تامـاً، بـل كـان مشـغولاً بـأمور الدولـة وأعبائهـا، إلا أنه يمكن أن نؤكد بان عنايته بالطب والتأليف فيه كانت كبيرة، بل كانت أحياناً جزءاً من أعماله الرسمية، والمثال على ذلك، أنه ألف كتابه (عمل مَنْ طبّ لمن حَبّ) لسلطان المغرب أ بى سالم المريني، كما أهدى كتابه (الوصول لحفظ الصحة في الفصول) للسلطان أبى عبدالله محمد الغنى بالله النصري. (الخطابي، الطب والأطباء، ج١٩٢:١)

ويمكن القول أن ابن الخطيب، كان طبيب البلاط النصري، إلى جانب ما يقوم به من أعباء الوزارة، بل كان في وقت ما يعتني بمعالجة المرضى، كعنايته بشيخه ابن هـذَيل عندما أصُيب بالفالج (الشلل) (المقري، نفح الطيب، ج٥:٤٩٧)

فضلاً عن مساهـمته في تـدريس علـم الطب لبعض الطلاب مثل: أحمد بن محمد بن المهنّا الذي خلف كتاباً ضخماً في شرح أرجوزة ابن سينا في الطب، وشرحه عليها من أبدع الشروح، وقد نقل عن لسان الدين كثيراً، واعتمد عليه في أمور الطب.(المقري، نفح الطيب، ج٧: ٢٨١ -٢.)

ويمكن في هذا المجال ذكر مؤلفات ابن الخطيب في الطب، كما أوردها المقري في كتابه نفح الطيب، وهي:

- رسالة في الطب سماها، مقنعة السائل عن المرض الهائل، وهـي رسالة كتبها عن الطاعون الجارف الذي داهم الأندلس و سائر بلاد العالم سنة(٧٤٨هـ / ١٣٤٧م.)

وتمتاز هذه الرسالة بالجرأة، وشرح الحجج المقنعة لانتقال العدوى بهذا المرض خلاف ما كان سائداً من أفكار غير صحيحة.

وقد شخص ابن الخطيب هذا المرض ووصف كيفية الوقاية منه قبل الإصابة به، وما ينبغي عمله من إسعافات وعلاج بعد الإصابة.(روم لاندو، الإسلام والعرب، تعريب: منير البعلبكي،(بيروت، دار العلم للملايين ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢م:٢٦٨.)

كما عالج في هذه الرسالة بعض المسائل الطبية كالإجهاض مثلاً. كما قدم فيها ترجمة لصديقه ابن خاتمة الطبيب والشاعر (ت ٧٧٠ هـ١٣٦٨/م)، الذي كانت رسالته، سنة (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩ م) في الطاعون، أكبر شأناً من رسالة ابن الخطيب. ولابن الخطيب:

١- المسائل الطبية.

٢- أرجوزة في الطب.

٣- الرجز في عمل الترياق.

٤- اليوسفي في عمل الطب.

٥- رسالة في تكوين الجنين.

٦- رجز في التغذية.

٧- كتاب في علاج السموم.

٨- كتاب في البيطرة (المقري، نفح الطيب، ج٧: ٩٨).

ومن كتبه التي سأتحدث عنها هو:

- كتاب الوصول لحفظ الصحة في الفصول:

وهو من أهم ما ألف في الطب، واسمه يدل على معناه، من حيث إ نه يهتم بتدبير الصحة بما يناسب كل فصل من فصول السنة الأربعة، وقد فرغ ابن الخطيب من تأليفه، في الثاني عشر من جمادى سنة (٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م)، أي قبل وفاته بخمس سنوات، وأهداه لسطانه (محمد الغني بالله النصري).

وضم في هذا الكتاب خلاصة ما وصل إليه من معارف و تجارب في حفظ الصحة، والأغذية، والوقاية من الأمراض.

ويشمل هذا الكتاب على جزءين، جزء يعالج الجانب النظري العام، والجزء الثاني في الوقاية وحفظ الصحة.

ويتحدث في الجزء الأول عن طبيعة فصول السنة وتأثيرها في الأبدان، كما يتكلم عن التغييرات التي تصاحب الفصول.

كما يشير إلى العناصر التي يتركب منها بدن الإنسان، وعن العناصر الضرورية للإنسان، كالهواء والمأكول والمشروب.

كما يتحدث عن أحوال النوم واليقظة، منافعهما ومضارهما (على الرغم من معرفته بهذا العلم إلا أنه لم يستطع معالجة مرضه بالأرق الذي أصابه !!؟)

والجزء الثاني: يشتمل على اختلاف الأمزجة، وعلاماتها، ويتكلم في تدبير بدن الإنسان بحسب الفصول الأربعة كذلك يتحدث عن أمور الأطفال والشيوخ.(الخطابي، الطب والأطباء: ١٩١)

ويوجد مخطوط هذه الرسالة في الخزانة العامة بالرباط تحمل رقم (٦٥٢) وأخرى في الخزانة الملكية تحمل رقم (٧٩٧)(دويدري، لسان الدين:١١٧.)

ومن كتبه في هذا المجال:

- كتاب عَمل مَنْ طبَ لِمنْ حبَ:

ألف لسان الدين هذا الكتاب لسلطان المغرب أبي سالم بن أبي الحسن المريني، وقد انتهى من تأليفه سنة (٧٦١هـ / ١٣٥٩م). (ابن الخطيب، ريحانة الكتاب: ٣٧.)

ويتألف هذا الكتاب في جزءين الأول: يتألف من عشرين باباً تحدث فيه عن الأمراض التي تصيب الإنسان من الرأس إلى القدم، كالصداع، وأمراض العين، والأذن، والأنف، وأمراض الحلق، والصدر..... الخ أمّا الجزء الثاني فهو من أربعة عشرَ باباً تحدث فيها عن الأمراض التي تعم البدن كله ولا تختص بعضو معين، كالحمى، والأورام، وأ مراض الجلد.... وغيرها.

وتوجد نسخة خطّية من هذا الكتاب في الخزانة الحسينية بالقصر الملكي بالرباط تحمل رقم (٣٤٧٧)، ونسخة أخرى بخزانة القرويين في فاس تحمل رقم (٤٠/٦٠٧)، وأخرى في المكتبة الوطنية بمدريد تحمل رقم (٣٠١١).

من خلال الإطلاع على منهج ابن الخطيب في هذه الكتب، يلاحظ إنه أتى على ذكر كل مرض مشيراً إلى تعريفه ثم أسبابه وعلاماته، و بعد ذلك يتطرق إلى علاج ذلك المرض وتدبيره. وتعتبر كتب ابن الخطيب في الطب مهمة، على الرغم من أنه لم يأت بجديد في مجال عالم الطب عما معروفاً في ذلك الوقت، إلا أنه يمكن القول بأنه، قد أتى بأسلوب جديد في تأليف كتبه.

كما ا ستطاع من خلال كتبه، خاصة كتاب (عمل من طب)، أن يأتي بالأ مراض التي كانت معروفة في زمانه والإفاضة في شرح علاجها من خلال الأدوية الشائعة وغير الشائعة لكل مرض.

علاقته بالتصّوف:

كان ابن الخطيب متديناً ورعاً فقيهاً متمكناً من علوم الشريعة، والحديث، حافظاً للقرآن ومتقناً لعلومه، وبالتالي وممّا لاشكّ فيه أنه ارتبط بالمتصوفة، أو كانت له اتجاهات صوفية، وأنه قد ازداد تعاظم الروح الدينية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، في الأندلس والمغرب وذلك لأسباب كثيرة أهمها:

الحروب التي تهدد غرناطةمن الممالك المسيحية المجاورة، وضعف العرب المسلمين في مواجهتها،كذلك كثرة الطواعين والأوبئة والمجاعات التي تلاحقت على البلاد، فلم يجد أهلها سوى العود إلى االله تعالى لينجيهم، وكان هذا العود عن طريق التصوف الذي يرى أن الرسول ﷺ هو المثل الأعلى، والإنسان الكامل، وأفضل الخلق، والوساطة بينه وبين الحق، وهو سبب الهداية والمنجى لما هم فيه، ودفع ذلك شعراء هذا العصر لينظموا القصائد في مدحه وتعظيمه وحبه، والشوق لزيارته والاستغاثة به .(ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف:١٣.)

وما كان من ابن الخطيب إلا أن يدخل في غمار هذه الحالة، وكثرة المدائح النبوية التي اشتهر بها، خير دليل على نزعته الصوفية:

وبالمُصْطَفَى والصحب عَجَّلْ إقالَتي وأنْجِعْ دُعائي فِيك يا خَيرَمَنْ يدْعىَ
صَدعْتُ وأنت المستغاث حَنانَه أقِلْ عَثْرتي يا مَوْئلي واجبر الصَّدْعاَ

(ابن الخطيب، نفاضة الجراب: ١٢٧.)

وقدكان المديح النبوي الشريف، والتضرع إلى االله تعالى، أحد أهم أغراض شعر لسان الدين، ليعبر عن صوفيته وزهده للدنيا، والشوق لزيارة الأراضي المقدسة.

كما أن رسائله المتوالية لأصدقائه وخاصة ابن خلدون وابن خاتمة، تصور رغبته في الزهد والاعتدال، وتركه السياسة والضجر منها وشوقه للقيام بالحج وزيارة الحبيب المصطفى ومن ذلك قوله لابن خاتمة: «... والنية مع االله على الزهد فيما بأيدي الناس معقودة، والتوبة بفضل االله عز وجل منقودة...، واالله قد عوض حب الدنيا بمحبته... اني إلى االله مهاجر، وللعرض الأدنى هاجر...»(المقري، نفح الطيب، ج٦: ٣٢).

فالصوفية حقيقة ملموسة في أدب وحياة ابن الخطيب، وفي هذا المجال وضع العديد من القصائد،كما ألف كتاب سماه (روضة التعرف بالحبّ الشريف) (وهذا الكتاب نشره أحمد عطا، سنة (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، القاهرة، مطبعة دار الفكر، ثم نشره وحققه محمد الكتاني، في مجلدين سنة (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠ م)، الدار البيضاء، مطبعة دار الثقافة.) وهو من أروع ما كتب ابن الخطيب في الحب الإلهي، باعتباره هو الجانب الأصيل في التصوف، وهو يعكس وجدان الصوفية واشراقاتهم الروحية. كما أن هذا الكتاب جاء رداً على بعض الآراء والمذاهب الفكرية، كآراء الفلاسفة الملحدين من أهل الإباحة، وهو ما يدل على وجود صراع بين أهل العقائد والنزاعات المختلفةفي ذلك العصر. (ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، ج١: ٢٢٢، و٦١.)

وتوجدمخطوطة هذا الكتاب بالخزانة العامة بالرباط تحمل رقم (١٤٥). ومن قصائده التي تعبر عن حبه وشوقه للرجوع إلى االله تعالى ورسوله ﷺ:

لي االله كَم أَهذِي بِنجدٍ وحاجرٍ وأُكني بدعْدٍ في غَرامي
أَسعدِى ومَا هي إلا زَفرةُ هاجَها الهوى وأُبدي بِها تِذكَار يثربَما أَبد

(أغلب قصائده وأشعاره في نفح الطيب، ج٦، ج٧.)

وإذا رجعنا إلى هذا الكتاب نجده لا ينطوي على شيءٍ مما جاء به خصومه من قول بالحلول والإلحاد، بل تكلم ابن الخطيب على المذاهب والآراء المتصلة بهذا الموضوع، ووقف عندها وقفات الرفض والإنكار الشديد لها، وكشف عما فيها من ضلال كما يراه هو ! (ابن الخطيب، روضة التعريف:٧٢).

لقدكان ابن الخطيب بحسب ما خلف من آثار عديدة،مؤرخ وجغرافي وأديب و شاعرُ وطبيب، وفقيه صوفي، وعالمُ سياسي، وأبرز تلك الجوانب بلا منازع هو ملكته الأدبية، من إنشاء نثري وتفنن في النظم والترسل، وهذاما حمله على تأليف تلك المصنفات التي برع فيها. فقد كان واسع الثقافة متعدد الجوانب والاهتمامات الفكرية، وبالتالي خلف وراءه تلك الأعداد الهائلة من المؤلفات المختلفة، فقد ترك من مؤلفات التاريخ ما عَدّ به من المؤرخين، وترك من مؤلفات الجغرافيا ما عَدّ به من الجغرافيين والبلدانيين والرحالة وترك من فنون النثر والرسائل والشعر ما جعَله في عداد المترسلين، وشاعر بالقدر الذي جعله من أعلام شعراء عصره.

كما يبدو من هذا إن الثقافة الأندلسية قد تجلت واجتمعت في هذا الرجل العلم وهذا ما جعل المَقْري أن يؤلف كتابه الذي سماه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب.

الخاتمة:

١- توصلنا من خلال هذه الدراسة، أنه رغم الأعباء السياسية التي كان يقوم بها، ابن الخطيب والمخاطر التي واجهته في حياته إلا أنه لم يكف قلمه عن الكتابة وتسطير الأحداث المختلفة التي مر بها، حتى ترك لنا ما يناهز الستين مؤلفاً ١٤٥ في مختلف المعارف والعلوم لذا اجتمعت آراء المصنفين على كونه خلاصة للثقافة الإسلامية الزاخرة في الأندلس.

٢- من خلال دراسة مؤلفاته توصلنا إلى أن التاريخ لدى ابن الخطيب هو تصوير للحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية لكل من غرناطة والمغرب، فقد أعطانا مادة خصبة يرجع إليها الفضل الأول في كثير مما نعرفه عن حضارة الأندلس و المغرب الإسلامي في تلك الفترة.

٣-من خلال رحلاته العديدة التي قام بها ابن الخطيب سواءً في مملكة غرناطة أو في المغرب ووصفه للمدن والمفاضلة بينها، أعطت هذه الرسائل صورة عن الأدب الوصفي الذي صور المجتمع وعرض معالم حضارة عريقة مازالت حتى اليوم شاهداً على التقدم الحضاري في ذلك الوقت.

٤- شارك ابن الخطيب في كتابة " فن التراجم " بإبداع نثري جميل، ولكن للأسف إنّ العديد منها لا يزال مفقوداً، وتميز إبداعه في التراجم بمنهجية دقيقة، اتسمت بالاصالة، والأمانة والموضوعية.

٥- عُدّ ابن الخطيب، من الأطباء، فقد كان طبيباً أ يضاً، وألف في هذا المجال العديد من المؤلفات التي اهتمت بوصف الأمراض وكيفية علاجها، مثل (عمل مخاطب لمن حب)، و (الوصول لحفظ الصحة في الفصول).

التوصيات:

إن أغلب نتاج ابن الخطيب لم يصل إلينا، فمنها ما هو مفقود في وقت إعداد هذه الرسالة، إمّا بسبب حرقه بعد نكبته، أو بسبب إخفاء بعض الناس له، ومنها ما يزال مخطوطاً، ندعو الباحثين والمحققين لإخراجه للنور.

كما آمل من الباحثين في الأدب والتاريخ، القيام بقراءات معمقة أخرى حول هذا الموضوع، والكشف عن بعض الجوانب الغامضة التي ربما لم أستطع الكشف عنها.

قائمة المصادروالمراجع

إن خير مانبتدىء به القرآن الكريم.

ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف ت٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م

١. نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، القاهرة، دار الثقافة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨١م.

الإدريسي، أبو عبد االله محمد بن محمد بن عبد االله بن إدريس ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م

٢. نزهة المشتاق في اختراق الآ فاق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ت٥٧٧ هـ / ١١٨١ م

٣. نزهة الألباء في ط بقات الأدباء، تحقيق: القاهرة، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار النهضة، (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م).

ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد االله محمد بن عبداالله الغرناطي السلماني ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م:

٤. الإ حاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد االله عنان، القاهرة، دار المعارف، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م
٥. أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، بيروت، دار المكشوف، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م
٦. جيش التوشيح، تحقيق: هلال ناجي، تونس، مطبعة المنار، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م
٧. روضة التعريف بالحب الشريف، تعليق وتقديم: محمد الكتاني، بيروت، دار الثقافة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٠م
٨. ريحانة الكتاب ونُجعة المنتاب، تحقيق: محمد عبد االله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
٩. كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق: محمد شبانة، القاهرة،القاهرة، وزارة الثقافة، دار الكتاب، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
١٠. الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق: إحسان عباس،بيروت، دار الثقافة، بيروت ١٣٨٣هـ١٩٦٣/م.
١١. اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق: محمد زينهم، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م.
١٢. مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس، تحقيق: أحمد مختار العبادي، الإسكندرية، مطبعة الجامعة، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨م، ومنشورات مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م

١٣. معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق: محمد كمال شبانة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م
١٤. نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، تحقيق: أحمد م ختار العبادي، القاهرة، دار الكتاب العربي، د.ت

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م:

١٥. التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تحقيق: محمد الطنجي، لجنة التأليف والترجمة والنشر،د.م ١٣٧١هـ / ١٩٥١م.
١٦. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أي ام العرب العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.
١٧. المقدمة،بيروت، دار الكتاب، ط٢، ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩م.

المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد ت١٠٤١هـ / ١٦٣١م:

١٨. أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الابياري، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠ م.
١٩. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.